

منهاج الدعوة عند ابن باديس

الشيخ محمد الصالح رمضان *

تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوم الخامس من ماي 1931 بعد بضعة شهور من الاحتفال الضخم الصارخ الذي أقامه الفرنسيون بمناسبة مرور مائة سنة على احتلالهم للجزائر في ظروف اشتدت فيها وطأة الإستعمار الاستيطاني في البلاد وكثر فيها الضغط على الشخصية الجزائرية في جميع مقوماتها حتى كادت تذوب أو تتلاشى ولم يكن وقتها حزب من الأحزاب الجزائرية قد ظهر في الميدان ما عدا تحركات الأمير خالد والنخبة التي ساندته في العشرينات بعد الحرب العالمية الأولى حتى نفي وبقيت الساحة الوطنية خالية.

وقد اتفق رواد الجمعية المؤسسون على إخفاء البعد الوطني الثوري الذي يهدفون إليه وراء المقاصد الدينية والثقافية التي أعلنوها في

*. أديب وكاتب جزائري.

قانونها الأساسي وعملوا لها جهازا نهارا بحكمة وروية في دائرة القوانين الجاري بها العمل حينئذ فأعمالهم قامت أساسا على التربية والتعليم ومحاربة الآفات الاجتماعية والتمسك بأهداب الدين الإسلامي وإليكم البنود الثلاثة الأولى لقانونها الأساسي المكون أصلا من 23 مادة الذي وضعوه لها :

أولا : تأسست في عاصمة الجزائر جمعية إرشادية تهذيبية تحت اسم (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) مركزها الاجتماعي بنادي الترقى الكائن ببطحاء الحكومة عدد 9 بمدينة الجزائر.

ثانيا : هذه الجمعية مؤسسة حسب نظام وقواعد الجمعيات المبينة في القانون الفرنسي المؤرخ بغرة جويلية سنة 1901.

ثالثا : لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسية.

بداية الصراع والمواجهة

استهانت سلطات الاحتلال بأمر هذه الجمعية عند ظهورها وحسبتها مثل الجمعيات الجزائرية المحلية الهزيلة الدينية والخيرية والموسيقية وغيرها التي لا قيمة لها تذكر خارج محيطها المحلي.

فاعترفت الحكومة بها، ولم تعترض سبيلها خاصة وهي تصرح في قانونها أنها (لا تشغل بالسياسة) فوافقت على قانونها الأساسي وأصبحت رسمية قانونية لا غبار عليها.

ولكن الأمر تغير بعدما شرعت الجمعية في العمل وبدأت أثارها تظهر في المجتمع فغيرت الإدارة الاستعمارية رأيها في الجمعية وفي رجالها ومشاريعها وبدأ الصراع يحدد ويشتد وكانت حربا معلنة من السلطات الحاكمة على هذه الهيئة الناشئة المؤمنة فصمدت الجمعية وثبت رجالها ولم يضعفوا أمام التهديد والوعيد ولم يغرم ما كانت تمنى به بعض الضعاف من مناصب ووظائف ونحوها واستمر رجال الجمعية في أعمالهم ومشاريعهم يعملون في هدوء وبحكمة وثبات متمسكين بشرعية جمعيتهم غير مباليين بالعوائق والعراقيل يجادلون بالتي هي أحسن ويقارعون بالحجة والبرهان كل تصرف ضدهم واستمرت الحكومة في متابعتهم والتضييق عليهم ومعاقبتهم بكل أنواع العقاب المتاح. فسجن منهم من سجن وعذب من عذب وغرم من غرم وما استسلموا ولا استكانوا ولا ضعفوا وهذا رئيس الجمعية ابن باديس في أحد الاجتماعات السنوية العامة لجمعية العلماء يستهل خطابه الرئاسي بقوله : "سلام عليكم أجمعين، سلام على مساجينكم في المساجين وسلام على متهميكم في المتهمين وسلام على منكوبيكم في المنكوبين سجون واتهامات ونكبات ثلاث لا تبني الحياة إلا عليها ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقّة إلا على أساسها. فاليوم وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث، أثبتت الجمعية في تاريخ الإسلام وجودها وسجلت في صحيفة الخلود رسمها ونقشت في قلوب أبناء المستقبل اسمها وبرزت في ذلك كله أسماء أولئك المسجونين والمتهمين والمنكوبين نجوما متألقة تأخذ بالأبصار" (مجلة الشهاب ج. 1، م. 14، ص. 100).

فرغم ما بذلت فرنسا في محاربة الوحدة القومية وتذويب الشخصية الجزائرية ومقاومة القيم الإسلامية فإن نهضة الجزائر الحقيقية قد ارتبطت بنشأة (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) فهي التي أيقظت الشعب الجزائري من سباته وعرفته بنفسه وبتاريخه وقيمه وأزالت الغشاوة عن أبصاره وغرست فيه الثقة بنفسه ودفعته إلى التقدم في الطريق السوي السليم وهذا هو السر في شدة كراهية الاستعمار وأعوانه لها وحرصهم على بذل كل جهد لكبت أصوات علمائها وعرقلة أعمالهم ومشاريعهم ولم يكن غيرها حينئذ يتحرك في الميدان لصالح الشعب ويحفظه لا الأحزاب السياسية ولا المنظمات الجماهيرية على مستوى الوطن.

يصرح الرئيس ابن باديس في أواسط الثلاثينات لما تكونت الأحزاب وتضاربت آراء السياسيين الجزائريين وانقسموا إلى أحزاب وشيع مختلفة (كل حزب بما لديهم فرحون) يتهم بعضهم بعضا يصرح رئيس الجمعية قائلا : "إن الجمعية لا توالي حزبا من الأحزاب وتعاد حزبا منها وإنما تنصر الحق والعدل والخير من أي ناحية كان وتقاوم الباطل والظلم والشر من أي جهة جاء محتفظة في ذلك بشخصيتها ومبادئها محترسة في جميع مواقفها مقدرة الظروف والأحوال بمقاديرها".

كان هدف الجمعية في المجال الديني والاجتماعي هو بعث نهضة دينية فكرية تقوم أساسا على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وهدى السلف الصالح ونبد الخرافات والأباطيل والبدع التي شوهت الإسلام وحطت من قيمة المسلمين وفي المجال السياسي الذي

لم تعلن عنه برامجها كانت تهدف إلى بعث شخصية وطنية أصيلة لا تتأثر بالتيارات الشرقية ولا الغربية المعروفة ولا تنقاد للأفكار والمبادئ المستوردة من أي جهة كانت (لا شرقية ولا غربية) وإنما تستوحي من قيمنا الثابتة الحقيقية وتستمد من ماضينا المجيد وتسائر العصر في معارفه وما يجد فيه مما لا يتنافى وقيمنا وأخلاقنا أو يتعارض مع المبادئ والحقائق الإسلامية.

قاومت الجمعية دعاة الاندماج والتفرنس من قومنا وحاربت الزواج بالأجنبيات والانسحاق مع التيار الغربي الجارف بلا وعي كما قاومت الجمود والخرافات من أئمة الضلال والاستغلال من أمتنا وحاربت دعاة التبشير المسيحي والتعليم العلماني اللاديني حربا ومقاومة لا هوادة فيها كما قاومت الجهل والجمود والخمول والالتكال والتخلف في شعبنا.

فأصدرت في شأن الأولين دعاة الاندماج والتفرنس فتاوى دينية شرعية بتكفير كل مسلم جزائري أو تونسي أو مغربي يتنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامية باختياره من أجل الاندماج والتجنس بالجنسية الفرنسية للتمتع بالحقوق المدنية أو غيرها واعتبرتهم مرتدين عن الإسلام. بمحض إرادتهم لا يجوز التعامل معهم إلا كأجانب عن الإسلام فلا تزواج معهم ولا يُصلى عليهم إذا ماتوا ولا يدفنون في مقابر المسلمين لأنهم غير مسلمون.

وحرمت تلك الفتاوى زواج المسلم الجزائري بالفرنسية لأن القانون الفرنسي يقضي بأن أبناءه منها يتبعون جنسية أمهم فيكونون فرنسيين ولا

يستطيع الأب منعهم من ذلك ورغم أن الإسلام لا يمنع الزواج بالكتائية فقد أفتى علماؤنا بتحريمه وهو اجتهاد ذكي وشجاع منهم لأن الأب مسؤول شرعا عن أبنائه.

وفعلا أحدثت تلك الفتاوى أثرها المطلوب وفعلت فعلها في المجتمع فجعلت حدا للتفرنس والتجنس والانغماس في حمأة التأورب والتغرب وكان لها صدى بعيد المدى في الشمال الإفريقي الخاضع للسلطة الفرنسية وحدث أن مات بعض أولئك المتجنسين ولم يرض المسلمون أن يدفن في مقابرهم، كما لم يقبل النصارى أن يدفن في مقابرهم واعتبره كل فريقا أجنبيا عن دينه، فلا هو مسلم عند المسلمين ولا هو نصراني عند المسيحيين، فاعتبروا يا أولى الأبصار واشتغلت الصحافة بهذا الصنف من البشر المنبوذين ردحا من الزمن بين مناصرة لهم ومشفقة عليهم وبين متحاملة عليهم ومحاربة لهم وعلم المتجنسون الأحياء أنهم لا هوية لهم لما رفضوا من الطائفتين فلا هم مسلمون ولا هم مسيحيون وكانوا عبرة عظيمة لمن يعتبر وحاول المتعاطفون معهم أن يجعلوا التجنس مسألة سياسية لا دخل للدين فيها لأن المقصود هو الحصول على الحقوق المدنية ولكن المسلمين اعتبروهم مرتدين خارجين عن الإسلام والمسيحيون لم يعتبروهم نصارى حقيقة فتوقف الشر المستطير

كما نقص الإقبال على الزواج بالأجنبيات تلك الظاهرة التي كادت تعم طبقة المثقفين المتفرنسين وصار من يرغب في ذلك الزواج يشترط في من يريد الزواج بها أن تدخل في الإسلام أولا، ثم تعلن عن ذلك رسميا

ليتزوج بها ويصبح أبناؤه منها مسلمين جزائريين هذا بالرغم من زعماء الأحزاب الجزائرية وكبار الشخصيات الثقافية والسياسية كانوا متزوجين بنساء أجنبيات وأغلبهن فرنسيات.

كما أفرغت هذه الفتاوى المتجنسين والمتفرنسين المتزوجين بالفرنسيات

أقلقت كذلك السلطات الفرنسية والدوائر التبشيرية وأذناها ورأوا فيها

معارضة صريحة خطيرة لمخططاتهم الجهنمية في سبيل القضاء على

الشخصية القومية في (الجزائر الفرنسية) وكانت تلك الفتاوى ضربات

قاضية لهذا النوع من المسخ والذوبان في الغير فأوقفت هذا التريف القاتل

للهوية الجزائرية والشخصية الإسلامية.

أما السلطة الفرنسية والمتعاونون معها أو المتواطئون من مستشرقين

ومبشرين وغيرهم الذين يريدون أن يجعلوا من الجزائر أرضا فرنسية ومن

الشعب الجزائري شعبا فرنسيا رغم البحر اللجاج الذي يفصل بيننا وبينهم

ورغم الفروق الكثيرة العظيمة بين الجزائريين والفرنسيين في كل شيء في

الطباع والدين والعادات والأخلاق واللغة.. إلخ فقد خاب فاهم وطاشت

أحلامهم بسبب النهضة الإصلاحية واليقظة العامة التي شملت الجزائر كلها

وعرفت الجزائري بقيمته ومكانته وأنقذته من التسيب والإهمال واللامبالاة

وأيقظته من غفلته التي طالت واستطالت وقضت على (أسطورة الجزائر

الفرنسية) يقول ابن باديس في كلمته الصريحة الفصيحة التي صادم بها

(فرنسة الجزائر) في أواسط الثلاثينات : "إن الأمة الجزائرية المسلمة ليست

فرنسية ولا يمكن أن تكون فرنسية ولا تريد أن تصبح فرنسية بل لا تستطيع أن تصبح فرنسية ولو أرادت فهي أمة بعيدة كل البعد عن فرنسا في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها.. إلخ"

هذه بعض المجالات التي تحركت فيها جمعية العلماء من أول عهدها، زيادة عن نشر التعليم العربي الحر وبث الوعي الديني والاجتماعي ومحاربة الأخلاق الفاسدة وتحريك الهمم الراكدة وبعث الروح الوطنية الصادقة وإيقاظ القومية العربية الإسلامية بدروس الوعظ والإرشاد وبالكتابة والخطابة في كل مناسبة

سأوجز الآن الوسائل التي استعملتها جمعية العلماء للبلوغ إلى أهدافها التي أرادت إيصالها إلى الشعب الجزائري.

- كانت جمعية العلماء تؤمن إيمانا راسخا بدور التربية والتعليم في خدمة الشعب الجزائري وإيقاظه من سباته وحفظ تراثه وكيانه من عوامل المسخ والتحريف والتزييف المطلقة عليه ثقافيا ودينيا وسياسيا، لذلك ركزت أعمالها من أول تأسيسها في سنة 1931 إلى قيام الحرب العالمية الثانية 1940 في العمل على تثقيف الشعب وتوعيته بجميع فئاته كبارا وصغارا ذكورا وإناثا فأسست المدارس الحرة لتعليم وتربية أبنائنا وبناتنا اللغة العربية والدين الإسلامي المحرومين من تعلمهما ومبادئ العلوم والمعارف الضرورية الأخرى كالحساب والتاريخ والجغرافيا لمن لم يجدوا أماكن في التعليم الرسمي بالمدارس الفرنسية فأنقذتهم من التشرذم ودفعت عنهم عار الأمية والجهل.

- بنت المساجد الحرة بعدما منع رجالها من التدريس في الجوامع الرسمية التي تشرف عليها وعلى موظفيها الحكومة اللائكية لتعليم الكبار وتثقيفهم بدروس الوعظ والإرشاد للكهول والشيوخ من عامة الشعب أوبالدروس العلمية الخاصة للشباب والطلاب الذين يريدون أن يتفقهوا بلغتهم ويعرفوا تاريخ بلادهم وأمتهم.

- أنشأت النوادي لتثقيف الشبان والعمال وتوعيتهم بالحياة وتنظيمهم في هيئات وجمعيات دينية وكشافية ورياضية واقتصادية وفنية وغيرها تشغلهم بدلا من أن يقضوا أوقات فراغهم في اللهو والمجون والعبث وهي ترى أن النوادي في حكم المدارس أو هي مكملتها في وظائفها التهديبية، فتنشل الشبان الذين تتخطفهم الشوارع والطرق وأماكن اللهو والفجور والخمر والميسر التي تجرفهم إلى مهاوي الانحلال الخلقي أو الانحراف الإجرامي أو التشرذ والضياع والتمرد على الأوضاع الاجتماعية المرعية وتنتهي بهم في الغالب إلى السجون والمنافي أو الأمراض الفتاكة

فهذه الميادين الثلاثة : المدرسة للصغار والمسجد للكبار والنادي للشبان هي الوسائل التي اعتمدتها الجمعية بالدرجة الأولى لتربية الشعب وتهذيبه وكانت تحيي فيها الذكريات الماجدة في التاريخ الإسلامي وتحتفل بالمواسم والأعياد الدينية والقومية لتذكر الناس بماضيهم الزاهر الباهر وتستجلي منها العبر والعظات وتشيد بالأجداد والبطولات لكبار الشخصيات وما إلى ذلك ولم يكن عملها التثقيفي التربوي مقتصرًا على الوطن فحسب بل

امتد إلى مواطن الغربية حيث توجد جاليات جزائرية في أوروبا وفي فرنسا بالخصوص فأنشأت لهم هنالك المدارس والنوادي وبعثت لهم المعلمين والمدرسين من خيرة المربين والدعاة الهداة المرشدين من رجالها.

هذا زيادة عن الصحف والجرائد التي كانت هي الأخرى مدارس متنقلة أو دروسا سيارة مسجلة يستفيد منها القراء والمثقفون في كل زمان ومكان، تتصل بهم أسبوعيا لتبلغهم دعوتها أو تعرفهم بما ينبغي لهم معرفته في دينهم ودنياهم فمن صحف الجمعية جرائد (السنة والشرعية والصراط والبصائر) ومن صحف أعضائها (صحف ابن باديس وأبي اليقظان والعقيي والعمودي والزاهري ثم بوكوشة وعلى بن سعد وعبابسة والجلالي وأخيرا حوحو) كما كان لرجال الجمعية وفود تتعاقب وتتجدد في كل سنة لمختلف جهات الوطن في العطلة الصيفية وعلى الخصوص في شهر رمضان المبارك لتتصل بالشعب اتصالا مباشرا تلقي دروس الوعظ والإرشاد حيثما تيسر لها في القرى والمدن وتصلح ذات البين والتراعات وتفض المشاكل والخصومات وتفتي فيما يجهلون في أحكام دينهم وشؤون حياتهم.

وكان لأعضاء الجمعية مؤتمر سنوي عام يعقد في مركزها بالعاصمة لبضعة أيام يدرسون فيه قضايا الجمعية وتلقى فيه البحوث والدراسات وتقدم التقارير وتنشأ الخطب والقصائد ويتم فيه اللقاء المباشر بين المثقفين والرجال العاملين في الحركة الإصلاحية.

الختم

الآن وقد تغيرت الأحوال فزال الاحتلال وجاء الاستقلال وذهب رجال وجاء رجال لكن مبادئ جمعية العلماء التي سطرها ابن باديس وصحبه سنة 1931 ما زالت تسري بعد أكثر من نصف قرن في نفوس الشعب وفي حكوماته وقد أخفقت سياسة المستعمر وفشلت سياسة التفرنس والتجنس والاندماج ومحاولات المبشرين في التنصير والتمسيح وزالت الشعرات والآراء الدخيلة التي امتزجت بها (سواء كانت يمنية أويسارية شرقية أو غربية) وبقيت الدعامتان القويتان اللتان أرسى عليهما ابن باديس وصحبه النهضة الجزائرية وهما (العروبة والإسلام) وسيظلان كذلك إلى ما شاء الله هما أساس القومية الحقة التي سار عليها آباؤنا وأجدادنا أربعة عشر قرنا من قبلنا ولا شيء غيرهما يمكن أن تتحقق به نهضتنا ويقوم عليه استقلالنا شئنا ذلك أم أبينا فهما الأساس الطبيعي القويم المتين لبناء حاضرنا ومستقبلنا لا مبدلين ولا مغيرين إن شاء الله.